«الفُتُوَّة» من الجاهلية حتّى العصر الحديث المفهوم.. الإيديولوجيا.. العقائد

م.د: مُحَمَّد غازي الأخرس

الملخص :

يتتبّع البحث مفهوم الفتوّة في الثقافة العربية من دلالته اللغوية المرتبطة بالشباب والحيوية، إلى تحوّله إلى منظومة أخلاقية قوامها الشـجاعة، الكرم، الإيثار، وتحمل المسـؤولية. ويعرض تطوّر الفتوة في الشعر، والتصـوف، والتنظيمـات الحِرفية مثل "الآخيـة"، وتمييزها عن المـروءة، ثم انزياحاتهـا التاريخية نحو الصعلكة والعيّارة والشطارة. كما يناقش توظيف الفتوة اجتماعياً وسياسياً، من أدوارها الشعبية في أزمنة الاضطـراب، إلى أدلجتها القومية الحديثة، ولاسـيما في تجربة "نظام الفتـوة" بالعراق في ثلاثينيات القرن العشرين، متأثرة بنماذج فاشية ونازية معاصرة.

الكلمات المفتاحية: الفتوة، المروءة، الصعلكة، العيّارون.

الفُتُوَّة لغةً ومفهومًا

يُستعمل لفظ الفتى في العَرَبيّة للدلالة على الشّاب. وبحسب ابن منظور، يعني الفتاء: الشّباب، والفعل منه فتو يفتو فتاء. وتدلّ "فتو" على الحيوية والنشاط، يقال: "فَتِيَ يَفْتَى فُتُوَّةً وفَتَاءً" للدلالة على حداثة السنّ وقوّة الشّباب[١]. ويجمع الفتى على فتيان، والفتي في السن يجمعونه أفتاء. ويُقال "في فتائه" إشارةً إلى طور الشّباب المبكّر. ولطالما وردت الكلمة في الشّعر العَرَبيّ للدلالة على ازدهار العمر، كما في قول الشّاعر:

إذا عاش الفتى مائين عاما

فقد ذهب اللذاذة والفتاء[٢]

إذ جعل من الفتاء قرينًا للذة الحياة وزمن قوّتها، بمقابل الشّيخوخة التي تُفقد الإنسان متعة العيش. وتتعدد صيغ جمع "فتى"، على فتيان وفتية وفتوة. وأشار اللغويون إلى أنّ العَرَب استغنوا عن جمع أفتاء في الاستعمال الشّائع لصالح فتية. "وقال القتيبي: ليس الفتى بمعنى الأب والحدث، إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال"[٣]، ويستدلّ على ذلك بقول الشّاعر:

إن الفتى حمّال كل ملمة ليس الفتى بمنعّم الشّبّان

ودخلت مفردة "الفتى" في العَرَبيّة بوصفها مضافًا، فمنهم "فتى العشرية أبو سليمان خالد بن الوليد المخزومي"، و"فتى العَرَب أبو مُحَمَّد عبد العزيز بن زرارة الكلابي"، وهناك "فتى قريش أبو عيسى بن مصعب بن الزبير بن العوام" و"فتى العسكر أبو عبد الله مُحَمَّد بن منصور بن زياد الغساني الكاتب" والخ[٤].

إلى هذا، سمّى العَرَب الليل والنهار "فتيان"، ويقولون في ذلك: لا أفعله ما اختلف الفتيان، أي الليل والنهار، ومنه قول الشّاعر:

ما لبث الفَتَيَان أن عصفا به

ولكل قفل يَسَّرا مفتاحا

أما مفهوم "الفُتُوَّة" القيمي والأخلاقي، فيتجاوز دلالة الشّباب وحداثة السن، ليصل إلى الجزالة والنضج وتحمّل المسؤولية. فالفتى عند العَرَب هو من يُدعى في النائبات كما في يقول طرفة بن العبد:

إذا القوم قالوا من فتى خلت إنني عُنيت فلم أبخل ولم أتبلد

وقال آخر:

ألا لله درك من فتى قوم إذا رهبوا

وقالوا من فتى للحرب يرقبنا ويرتقب

فكنت فتاهم فيها إذا تدعى لها تثب[٥]

ويقال لصاحب الفُتُوَّة فتى، ومنه العبارة الشّهيرة "لا فتى إلّا علي، لا سيف إلّا ذو الفقار"، التي تروى أيضًا بـ "لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلّا علي". وأطلقت العبارة من الرسول تقديرًا لما فعله عليّ في وقعة أحد من فروسية وفداء. وهناك من يروي أنّ رسول الله (ص) قال "أنا الفتى ابن الفتى أخو الفتى". فقوله أنا الفتى يعني فتى العَرَب، وقوله ابن الفتى يعني إبراهيم الخليل إشارة لقوله تعالى: "سمعنا فتى يذكرهم يقال له

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، الجزء العاشر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ص ١٨٠.

(٢) المصدرُ نَفسُه.

(٣) المصدرُ نَفسُه.

(٤) كتاب الفتوة، تصنيف الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي المكارم، المعروف بابن المعمار البغدادب الحنبلي، حققه ونشره الدكتور مصطفى جواد ، الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، الدكتور عبد الحليم النجار، أحمد ناجي القيسي، قدم اله الدكتور مصطفى جواد، الناشر مكتبة المثنى بغداد ١٩٥٨، ص ٨.

(٥) الفتوة في الإسلام، سعيد الديوجي، الدار العربية للموسوعات، بيروت الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص ٩.

إبراهيـم"، أما قوله أخو الفتـى، فيعني عليا[٦] (ع). ومن الواضح أن مفهوم الفُتُوَّة العلوي تحوّل إلى إرث فيمـا أثر عن أبنائه الأئمـة الأثني عشر. فقد ورد عن زين العابدين، علي بن الحسـين (ع) أنّه كان صاحب فتوة وكرم. ويذكر أبو القاسـم القشـيري حوارًا دار بين شـفيق البلخي وجعفر بن مُحَمَّـد الصادق (ع) عن الفُتُوَّة؛ يسأل البلخي الإمام عن الفُتُوَّة، فيقول له: ما تقول أنت؟ فيقول شفيق: إن أعطينا شكرنا، وإن مُنعنا صبرنا. فيجيب الصادق: الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل. فيقول شفيق: يا ابن بنت رسول الله ما الفُتُوَّة عندكم؟ فيجيـب: إن أعطينا آثرنا، وإن منعنا شكرنا"[٧]. أي إن الفُتُوَّة عندهم هي الإيثار.

وقيل إن الجنيد حين سأله أبو حفص النيسابوري عـن الفُتُـوَّة، قـال بأنهـا «إسـقاط الرؤيـة وتـرك النسبة»[٨]، فرد عليه النيسابوري: «الفُتُوَّة عندي أداء الإنصـاف، وترك مطالبة الإنصـاف»[٩]. وقيل إن أبا حفص سـأل: دلّنا على الفُتُوَّة، ما هي؟ فقال: الفُتُوَّة تؤخذ استعمالا ومعاملة، لا نطقًا، فتعجبوا منه[١٠].

من هذا المعنى، ورد عن بعض المتصوّفة تمييزهم الفُتُوَّة عن المروءة، فرغم أنّ كلتيهما تقوم على مكارم الأخلاق وحسـن السـلوك في الحضر والسـفر[١١]، إلّا أنّ المـروءة تميل إلى مـا يتصل بذات الفـرد وحياته الخاصة، بينما تتسع الفُتُوَّة لتشمل الآخر والعلاقات الاجتماعية. يذكر الجرجانـي في تعريف المروءة إنّها «قوة النفـس»[١٢]، و«مبدأ لصـدور الأفعال الجميلة عنها المستتبعة للمدح شرعا وعقلًا وعرفًا»[١٣]. ويرى البيرونـيّ أنّ الفُتُـوَّة أعـمُّ من المروءة، مـن باب أنّها تتعـدّى الرجل وذويه إلى غـيره، بينما تقتصر مروءة الرجل على نفسه وذويه وحاله[١٤].

الفُتُوَّة و«الآخيّة»

مـن جانـب آخـر، تشـابكت الفُتُوَّة مـع مفهوم «الآخيـة» الـذي ظهـر في البيئات الصوفيـة والمهنية بتركيـا. ويُقصـد به الأخـوّة الروحيـة والعملية بين الأفراد، إذ يُلقّب المنتمي إلى الجماعة بـ«أخي»، تعبيرًا عـن رابطة المودة والتكافـل[١٥]، «فيقولون: أخي عزّ الدّيـن، وأخي عـلاء الدّين، وأخي علي بـك أي الفتى فـلان»[١٦]. يذكـر ابن بطوطـة إنـه في كلّ بلد دخله في الأناضـول «وجد هـؤلاء الفتيان وهم منقسـمون أقسـامًا بحسـب حرفهم»[١٧]. ولهؤلاء شيوخ وزوايا نظيفـة في كلّ بلدة، مفروشـة لاسـتقبال الضيوف. وهم يشتغلون في أعمالهم نهارًا، ويعطون ما كسبوه إلى شـيخهم، الـذي يحـضر لهـم الطعـام والفاكهة والحلـوى، فيفرحون باسـتقبال الضيوف والغرباء. على هذا، شكّل هؤلاء الفتيان ما يشبه نقابات العمال، إذ ثمّـة تنظيم دقيق لها شرحـه الدّكتور أحمد أمين اعتمـادًا على كتـب المؤرخـين الأتـراك. كان الفتيان المنتمون لهذه التنظيمات يتدرجون من مبتدئ تلميذ وصانع ورئيس وهكذا. ولهـم شروط في كلّ مرحلة، فالمبتـدئ يبقى عدة سـنوات بـلا أجرة، ثـمّ يتدرج لمرحلة تدفع له فيها أجرة أسـبوعية مناسبة لمهارته. ثـمّ يسـتمر حاملًا اسـم أبيـه إلى أن يدخل في سـن الرجولة، أو يصل في صنعته إلى حدّ الإتقان، فيسـمّى حينها صانعًا، لكن لا يسمح له أن يفتح محلًّا وحده

(٦) المصدرُ نَفسُه، ص ١٤
(٧) الرسالة القشيرية ص ١٠٤.
(٨) طبقـات الصوفيـة ويليـه ذكـر النسـوة المتعبـدات الصوفيـات، أبـو عبـد الرحمـن محمد بن الحسـين السلمي، المتوفى ٤١٢ هـ، حققه وعلق عليه: مصطفى عبـد القادر عطا، دار الكتـب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨. ص ١٠٥.
(٩) المصدرُ نَفسُه، ص ١٠٥.
(١٠) المصدرُ نَفسُه، ص ١٠٥.
(١١) المصدرُ نَفسُه، ص ٣٤٣.
(١٢) الفتوة عند العرب، ص ١٧.
(١٣) المصدرُ نَفسُه، ص ١٧.
(١٤) المصدرُ نَفسُه، ص ١٧.
(١٥) ينظـر، الصعلكـة والفتـوة في الإسـلام، أحمـد أمين، مؤسسـة هنداوي للتعليم والثقافـة، القاهرة، ٢٠١٢، ص ٤٠.
(١٦) المصدرُ نَفسُه، ص ٤٠.
(١٧) المصدرُ نَفسُه، ص ٤٠.

لحسابه، إلى أن يدشن الصانع، ويعترف بأهليّته وتسمّى هذه العملية في لسان الأتراك «عملية الشّدّ»، ولا يُشدّ إلا إذا كان مبتعدًا عن المنكرات ملتحيًا، وإلى آخر الطقوس والتدرج في المراحل[١٨].

اتصالًا بهذا، ينقل أحمد أمين عن إلياس عبد الله، قنصل هولندا بدمشق، رأيه بوجود تشابه كبير بين هذه النظم ونظام الماسونية وتقاليدها. ويَستفهم إن كانت الماسونية قد أخذت نظامها من نظم الفُتُوَّة[١٩]. الحال إن إمكانية تأثر تلك النظم بعضها ببعض متوفرة، بدليل أنّ النظم نفسها ترجع إلى عهد الفاطميين. فهؤلاء ألّفوا جماعة أطلقوا عليهم «صبيان الخاص»، وجعلوهم من أخصّاء الخليفة، وسمّوا في عهد المماليك بـ«الخاصكية»، وسمّوا في نظام الفُتُوَّة بالفتيان الخاصكية[٢٠]. وهناك فرقة أخرى تسمّى صبيان الحجر، وهم جماعة من الشّبان يناهز عددهم خمسة آلاف، يقيمون في حجر منفردة، ولكل حجرة اسم خاص. بعضهم يسمّون «مماليك الطباق» وهم نفسهم الذين يسمون في نظام الفُتُوَّة «فتيان الطباق»[٢١].

فتوة المياسير

من بين المفاهيم الخاصة بالفُتُوَّة ما يسميها الباحثون بـ«فتوة المياسير»، أو «الفُتُوَّة اللاهية»، وهي نوع اختصّ بشريحة من الشّبّان الميسورين الذين ينتمون إلى الأرستقراطية العَرَبيّة، ابتداءً من عصر ما قبل الاسلام صعودًا. يؤمن هؤلاء بمبدأ اقتناص اللذة، ومطاردة المباهج الغريزية والمتع الجسديّة. فكانوا يخرجون إلى الصيد ويخيمون في الواحات، ويقضون أيامهم في القصف والشراب وتعاطي الشّعر والسباق. من هذه الشّريحة شعراء كأمرؤ القيس وطرفة بن العبد والأعشى، الذين كانوا ينتمون إلى عوائل ثرية. إن طرفة مثلًا يجمع المعنيين في فتوته، فهو فتى يجسّد معاني القوة والمروءة والحصافة، لكنه أيضًا يرتاد الحوانيت غير عابئ بشيء:

إذا القوم قالوا من فتى خلت
أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلد[٢٢]

ثم يقول:

فإن تبغني في حلقة القوم تلقني
وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد[٢٣]
فلولا ثلاث هنَّ من عيشة الفتى
وجدِّكَ لم أحفل متى قام عُوَّدي
فمنهنّ سبقي العاذلاتِ بشُربةٍ
كُميتٍ متى ما تعلَ بالماءِ تُزبدِ
وكَرّي إذا نادى المُضاف مُحنّبا
كسيدِ الغَضا نَبَّهتَهُ المُتورّدِ[٢٤]

أي إن الفتى حسب فهمه هو من يجمع هذه الصفات معا، فهو جاد، كريم، شجاع، مثلما هو متلاف للمال وباحث عن المتع الحسية ومرتاد للحانات.

يقول مصطفى جواد إنه في أواخر العصر الأموي أي في الثلث الأول من القرن الثاني، عرف في العراق والشام، طبقة من الناس بعرفون بـ«الفتيان» يجتمعون للهو والسكر والغناء، «وكان الغناء من أظهر لهوهم وقد حرمه الأمير خالد بن عبد الله القسري بالعراق لما وليه في العصر المذكور، ثم أذن فيه لحنين الحيري وحده على شرط ألا يحضره سفيه ولا معربد»[٢٥]. واستمر الوضع هكذا حتى الربع الأول من القرن الثالث، إذ «تميزت الفُتُوَّة اللاهية العاتية تميزا تاما بآدابها إن صح أن تسمى آدابًا

(١٨) المصدرُ نَفسُه، ص ٤٣.
(١٩) المصدرُ نَفسُه، ص ٤٥.
(٢٠) المصدرُ نَفسُه.
(٢١) المصدرُ نَفسُه.
(٢٢) ديوان طرفة بن العبد، شرحه وقدم له: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٢، ص ٢٤.
(٢٣) المصدرُ نَفسُه.
(٢٤) المصدرُ نَفسُه، ص ٢٥.
(٢٥) كتاب الفتوة، ص ١٤.

وتقررت أحكامهـا ومصطلحاتها واسـتتبع ذلك أن يكـون لها قضـاة كأبي الفاتك بن عبـد الله الدّيلمي الظريف الملقب بقاضي الفتيان»[٢٦].

الفُتُوَّة والصعلكة

تُظهر التحولات التاريخيـة أن ظاهرة الصعلكة، التـي ارتبطـت، في عـصر ما قبـل الإسـلام، بالتمرد والفقـر، كانـت في طريقهـا إلى التراجـع بفعل تبدّل القيـم والظـروف الاجتماعيـة. فمع مجيء الإسـلام خفّـت الحاجة إلى السـلب والغزو كوسـيلة للعيش. فعدا تحريـم الدّين الاعتداء على الأموال، كانت الدّولة الناشئة قد فتحت أبوابًا مشروعة للغنيمة عبر الحروب المنظّمة، وأقامت الخلافة نظامًا للزكاة يضمن للفقراء موارد تعفيهـم من الحاجة إلى العدوان. وهكذا ذابت الصعلكة بوصفها نظامًا اجتماعيًا نشأ بفعل الحاجة الماديّـة، ولم يبقَ منها إلّا مظاهـر متفرقة من النهب الفردي غير المنظّم في بعض البيئات البدويّة.

مـع هـذا، أثّر اتسـاع الدّولة الإسـلامية وازدهار العمران في نشوء فئات أخرى تمارس نوعًا من الفوضى والعنـف عُرفتها المـدن الكبرى، وسـمّيت بجماعات العيّارين والشطّار التي تضخمت على حساب ضعف السـلطة، وراحـت تمـارس أعمال السـلب وتفرض الإتاوات على الناس. في الأخير، غدت الحركة شـبيهة بمـا كان يفعلـه الصعاليـك، لكن بطريقـة جديدة. فالصعاليك العَرَب اتسـموا بالمـروة والفُتُوَّة بالمعنى الأخلاقي الرفيع، بينمـا كان العيّارون على النقيض، إذ غابت عنهم قيمة العدالة الشّـعبية التي كانت تبرر عنـد القدماء بعض أنواع السـطو والسرقة، لاسـيما من الأثرياء ورموز السـلطة، أو البخلاء. لقد انحرف معنـى الفُتُوَّة عنـد الصعاليك الجـدد، العيّارين، إلى اعتداء على الناس وسـلب لمـا في أيديهم. وترافق ذلك مـع ظهور الشّـطّار في بغـداد ممن أشـاعوا مفهوم «الشـطارة» بوصفها مكرًا وحيلـة بغرض تحصيل ما في أيدي الناس مـن أموال. وبدأ ذلك يحدث خلافًا لما كان يجري مع الصعاليك والفتيان، الذين مارسوا ما يشـبه الرقابة المدنية على السلوك العام، مستندين إلى مبـدأ التعاون عـلى الخير والدفاع عـن الضعفاء، ليشكلوا، من ثمّ، نواة للضبط الأخلاقي الشّعبي الذي ينهض كلما تراخت يد الدّولة.

الشـطارة، من جهتهـا، ظهرت لتمثـل نوعًا من الالتفـاف عـلى المجتمـع باسـتخدام الحيلـة والمكر والخديعة التي تفتقر تمامًا لفروسية الفُتُوَّة.

يمكـن هنـا ملاحظة التغـير البطـيء في مفهوم «الشطارة» نفسـه. ففي بداية تبلوره، كانت المفردة تـؤدي معنى التحايل والخبث لخـداع الآخرين. لكن بمـرور الوقـت، انحرفت الدّلالـة إلى معنـى المهارة والحذق والبراعـة، فغدت مفردة «الشـاطر» مرادفًا للفظة البارع الحاذق، بعد أن كانت ترادف المنحرف الخـادع. إن هذا يـدلّ على حدوث تغـيّر قيمي مهم، وهـو أنّ المجتمـع بـات يميـل لتقدير قيمـة الخداع وعدها رديفًا للبراعة والحـذق والكفاءة. لهذا أصبح «الشـاطر» في اللهجـات العَرَبيّة هو الحـاذق الماهر. فهناك طالب شـاطر، أي متفوّق، وامرأة «شاطرة»، أي مجيدة لعملها.

عبر هذا التطور المتلاحـق، يتّضح أنّ العلاقة بين الفُتُوَّة والصعلكة، ثمّ العيارة والشـطارة، قامت على وحـدة الأصـل الاجتماعـي؛ في الأصـل، دارت الفُتُوَّة في مـدار نزعة الشّـباب والنجدة، غـير أنّها اختلطت في الوقـت نفسـه، بكونها نتاجًا لبيئـة اليسر والغنى والبحـث عن المتـع. ولئن اتخـذت الفُتُوَّة مـن الكرم والعون مسـلكًا للشرف، فـإنّ الصعلكة خرجت من رحـم الفقر والحرمان، لتتخذ التمرد وسـيلة للعيش والاحتجاج. مع ذلك، ترك كلاهما أثرًا عميقًا في البنية الأخلاقية للعرب، إذ أسـهما في ترسيخ قيم الشّجاعة والإقدام والرفض للظلم، وأمدّا الحياة الأدبية والفنية بفيـض من الصـور والمواقف التي خلّدت في الشّـعر والسـير. ومع تطور الحياة المدنية وتعقّد منظومتها، انحرفـت الفُتُـوَّة والصعلكة لتكون عيارة وشـطارة

(٢٦) المصدَرُ نَفسُه، ص ١٧.

عكستا شيوع النفعية والانحراف في القيم العَرَبيّة الموروثة من عصر البداوة، بحيث أصبح الشّاطر والعيّار نقيضين للفتى والصعلوك.

العيارون في فتنة الأمين والمأمون

مع هذا، لعب العيّار والدعّار دورًا بالغ الأهمية في فتنة الأمين والمأمون، اذ وظف الآلاف منهم، إضافة للأوباش والرعاع والطرّارين وأهل السوق، ممن كانوا محتقرين ومنبوذين قبل الفتنة، ليكونوا قوّة منظمة تدافع عن بغداد من غزو المأمون ومن معه من الفرس، كما تم تصدير الأزمة في الذهن الشّعبي[٢٧]. يروي المؤرخون أنّ الظاهرة بدأت تلفت النظر مع فتنة الأمين والمأمون، التي شهدت ظهورا مثيرًا للعيّار. فما إن اقتربت جيوش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين من بغداد سنة ١٩٦ هـ حتى ثار العامة في بغداد دفاعًا عن الخليفة الشّرعي ونقب أهل السجون، وخرجوا منها، وفتن الناس، وساءت حالهم، ووثب الشّطّار على أهل الصلاح كما يسميهم ابن الأثير[٢٨]. يقصد كبار التجار والأثرياء والقواد ممن تخاذلوا عن نصرة الخليفة الأمين.

إن من يسميهم ابن الأثير بالغوغاء والفساق كادوا أن يحسموا الفتنة التي دامت أربعة عشر شهرًا، إذ قادوا معارك شرسة ضد جيش المأمون. يصفهم المسعودي بأنهم كانوا يقاتلون عراة «في أوساطهم التبابين والميازر، وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص وسموها الخوذ، ودرقًا من الخوص والبواري قد قيّرت وحُشيت بالحصى والرمل، على كلّ عشرة منهم عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كلّ عشرة قوّاد أمير»[٢٩].

لعلّ توظيف الفتيان في فترات لاحقة ليكونوا قوة بديلة عن الدّولة، استلهم هذه التجربة ليتكرر في تجربتين مثيرتين هما تجربة تشكيل منظمة «الأحداث» في الشّام، وتجربة الفُتُوَّة التي أسسها الناصر لدين الله في بغداد والأقاليم الأخرى. فيما يتعلق بـ «الأحداث» الشّاميين، فإنّ أول ظهور لهم كان في القرن الخامس الهجري، إذ ظهرت طائفة من الفُتُوَّة ببلاد الشّام وأشهرهم «أحداث» مدينة حلب الذين رعاهم ونظمهم الأمير أسد الدّولة صالح بن مرداس الكلابي، وساعدوه في احتلال حلب سنة ٤١٥ هـ، وانتزاعها من سلطان الدّولة الفاطمية[٣٠]. والتحق بفرق الأحداث وحارب معها الرعية كما تطوّعت معهم أعداد من الجنود، وجموع أهل القرى المحيطة بمدينة حلب. ويعزو الدّكتور مُحَمَّد الخطيمي ظهور هذه الفرقة إلى الفراغ السياسي الذي ظهر بعد انهيار السلطة الاخشيدية في مصر، ثم احتلال الفاطميين لحلب ومحاولتهم احتلال الشّام [٣١] . في العموم، كانت منظمة الأحداث في القرنين الحادي عشر والثاني العشر الميلاديين قوة تحسب لها الدّولة ألف حساب و«كان رئيسها في الواقع سيد المدينة، وكان له النفوذ التام في فترات الفوضى والفتن»[٣٢]. جغرافيًا، انتشرت فرقة الأحداث في دمشق وحلب وصور، وكان لهم وجود في الموصل في القرن الثاني عشر الميلادي. وحين بلغت حركة العيارين والشطار في العراق ضد البويهيين، كانت حركة الأحداث في الشّام قد بلغت أوجها ضد الفاطميين.

إلى هذا، تكررت التجربة نفسها في مصربعد

(٢٧) حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، د. محمد رجب النجار، سلسلة (عالم المعرفة)، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، سبتمبر (أيلول) ١٩٨١، ص ٢١.

(٢٨) المصدرُ نَفسُه.

(٢٩) المصدرُ نَفسُه، ص ٣٦.

(٣٠) الفتوة ..نشأتها وتطورها حتى سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨، الدكتور أحمد محمد الخطيمي، تدقيق محمد أحمد الخطيمي، رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية (١٩٣٩ـ ٦ ـ ٢٠٠٨) عمان ـ ٢٠٠٨، ص ١٤٥.

(٣١) المصدرُ نَفسُه، ص ١٤٦.

(٣٢) المصدرُ نَفسُه، ص ١٤٧.

قـرون حـين لعـب الفتـوات دورًا بـارزًا في مقاومة الفرنسـيين وإقـلاق راحتهم بحسـب وصـف احمد أمـين[٣٣]. ينقـل الأخير عـن الجبرتي أن الفرنسـيين أرادوا فرض بعض الضرائب على الأملاك والعقارات، فلما أشـيع ذلك، جرى لغـط في مصر، فتجمّع الكثير مـن الغوغـاء وعزموا عـلى الجهاد وأبـرزوا ما كانوا أخفوه من السـلاح. وحفر الفتوات والزعّار المتاريس وتمترسـوا بهـا، «وازداد الحـال سـوءًا، وامتدت يد الغوغـاء إلى النهـب والخطف والسـلب، ونهبوا دور النصارى والشوّام والأروام، وسـبوا النساء والبنات، واختطفوا الأمتعة وقتلوا كثيرًا من الجنود الفرنسيين. فلما أصبح الصباح أحضر الفرنسـيون جميع الآلات مـن المدافع والقنابر والبومبـات. ولما ضربوها صاح النـاس: يا خفي الألطاف نجنا ممـا نخاف. وذعروا مـن المدافع لأن أهل هذا الحي لم يروها من قبل»[٣٤]. وكان ممـن اتهم بهـذه التهمة رجل اسـمه إبراهيم أفندي، «وتهمته كما يقول الجبرتي: إنه كان قد جمع جمعًـا من الشّـطّار وأعطاهم الأسـلحة. وكان عنده أيضًا عدة من المماليك المخفيـين والرجال المعدودين فقبضوا عليه وحبسوه»[٣٥]. ومن هذه الأحداث، تعلم الإنجليز الدّرس كما يقول أحمد أمين، فكتموا أنفاس هؤلاء الفتوات وقتلوهم أو سجنوهم، وقلموا أظافرهم بأخذ الأسلحة منهم حتى العصي والسكاكين[٣٦].

مع هذا، اسـتمرت الظاهرة حتى منتصف القرن العشريـن، وكان للفتـوات في مـصر والشـقاوات في العراق والزعران والقبضايات في بلاد الشّـام، وجود قوي، وذو أثر كبير في المجتمع. يروي المؤرخون أنهم كانوا جزءًا من المشـهد الاجتماعـي العام. فلكلّ حيّ وحارة في القاهرة والإسكندرية فتوتها، فيقال «فتوة المنشـية» و«فتوة الجمالية» و«فتوة الحسـينية»[٣٧]. ويتّسم الفُتُوَّة المصري بالشهامة والشجاعة والمروءة، فهـو يدافـع عن حارتـه وأهلها، من قبيـل ما يرويه المؤرخ الجبرتي عن الفُتُوَّة المسـمّى حجاج الخضري مثلًا. فقد كانت له بوابة قرب السـيدة عائشة تسمّى باسمه. وكان يتزعم بائعي الخضروات، وأهل حرفته «يسـمعون كلامـه أكثر ممـا يسـمعون كلام الوالي. ولذلك شـنقه الوالي تأديبًا لأتباعـه من غير أن يكون جنى جناية»[٣٨]. وبحسـب أحمد أمين، يمتاز الفُتُوَّة بالتبجح بشـجاعته، وهـو يؤذي مـن لا يحتمي به، ولا تخـرج زفّة من الحي إلّا بحمايته وضمانته. ومن أعماله أن «يتعرّض لزفـات الأحياء الأخرى ويوقفها ويطلـب مـن الزمّاريـن والطبّالـين أن يطبّلـوا لـه ولزملائـه، ويزمّروا على حد تعبيراتهم «عشرة بلدي» وهو يرقص على الزمارة، فإذا أجابوه إلى طلبه فبها، وإلّا ضرب هو وزملاؤه الزفّة وأفسد كيانها، وقد يقع في المعركة بعض الجرحى»[٣٩].

يـروي كتاب (تاريخ فتوات مصر) للمؤرخ سـيد صـادق عبـد الفتـاح عـشرات القصص عـن فتوات مصر مثل «أبو طاجن» و«أحمد منصور» و«حسـن الأسـود» وكان هـؤلاء الثلاثـة يتنازعـون النفوذ في «باب اللوق» و«البلاقسـة»، وهناك «عبده الجياشي» و«فرج الزيني» و«مرجان السقا» وغيرهم[٤٠]. وكان الحاج «حسـن جامـوس» يحكم في حـي «الحنفي» وتحت يـده ولي عهـده «حافظ الهـواري». ثم يثبت المؤلـف قائمة طويلة ببقية الفتـوات في نهاية القرن التاسع عشر، مثل «عفيفي القرد» و«أحمد الخشاب» و«حسـن الخشـن» و«محمـود الفلكـي» و«حسـن كسـله» و«ابن وهـدان»، بل كانت هنـاك فتوة امرأة

(٣٣) الفتوة والصعلكة في الإسلام، أحمد أمين، ص ٤٨.
(٣٤) المصدَرُ نَفسُه، ص ٤٨.
(٣٥) المصدَرُ نَفسُه.
(٣٦) المصدَرُ نَفسُه.
(٣٧) الفتوة والصعلكة في الإسلام، أحمد أمين، ص٤٦.
(٣٨) المصدَرُ نَفسُه، ص ٥٦.
(٣٩) تاريـخ فتوات مصر ومعاركهم الدامية، سـيد صديق عبد الفتاح، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص ١١.
(٤٠) المصدَرُ نَفسُه، ص ١١.

هي الست «عزيزة الفحلة»[٤١]. وجسّدت السينما المصرية هذه الفتونة في الكثير من الأفلام التي أنتجت في عقد الثمانينيات اعتمادًا على بعض روايات نجيب محفوظ، مثل «فتوات بولاق» و«فتوة الجبل»، وحديثًا أنتجت مسلسلات تستعيد هذه الأجواء مثل مسلسل «الفُتُوَّة». خلال الفترة التاريخية نفسها، عرف العراق فئة «الشقاوات» المرادفة، وعرفت مدن الشّام «القبضايات» و«الزكرتية». في بغداد، يعرف «الشقاوة» بأنّه شاب شجاع يحمل السلاح ويدور في الأزقة ليحميها من الغرباء. وهو «إنسان تفيض جوانحه بشتى أحاسيس الحبّ والخير والجمال، ومنهم من يغالي في احتساب المروءة من لوازم حياته. أمّا العنف والعصيان وما إلى ذلك من الأفعال التي تطعن صميم الإنسانية، فإنها من مستلزمات تلك الحياة الشّاقة التي لا مندوحة منها في سبيل الحفاظ على الحياة»[٤٢]. ولسن اقتصرت أعمال الأشقياء بادئ ذي بدء على سلب قوافل الحكومة، فإنها تطورت إلى السطو على دور الأغنياء والموسرين بعد أن اشتدّت سطوة الحكومة وعززت قوافلها بأفراد مدججين من الجندرمة الغلاظ[٤٣].

ومن أشقياء بغداد المعروفين: عباس السبع، جواد الأجلك، إبراهيم عبدكه، عبد الأمير العجمي، حمودي الاقجم، خالد دونكي، طالب إبن ماهية، جاسم حمدان، سعيد عكار، طارق مُحَمَّد كاظم، ضاري أبو السوس، ناجي سبع، علي ماما ، محسن السهيل ومساعديه مشكور وسلام واوية، كريم شواكة، مهدي الأسود الملقّب «إبن العبدة»، سلمان الأسود، ووليد طاوة. وفي سبعينيات وثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، ظهرت الفئة في مدينة الثورة (الصدر حاليا)، وأصبح يطلق عليهم مصطلح «الخوشيه»، ومنهم رزاق طرزينه وحبيب الأسود وعادل الفاره وأخوه مُحَمَّد الفارة، وغيرهم العشرات.

أدلجة الفُتُوَّة قوميًا

لم يكن الاتجاه بمفهوم الفُتُوَّة نحو الأدلجة القومية غريبًا أو منافيًا للمنطق. فالفتيان مثلوا مادة خام ليكونوا قوّة ضاربة ومنظمة لحماية الدّولة أو المنظومة الأخلاقية في المجتمع، لاسيما في فترات الاختلال وضعف الدّولة وعجزها عن محاسبة الرعية. عدا ذلك، قد تعمّد الدّولة إلى توظيف الفتيان لخدمة استراتيجياتها وعقديتها العسكرية كما جرى مثلًا مع تجربة الفرقة الانكشارية التي تأسست، بحسب احد الآراء، انطلاقًا من الفرقة الصوفية البكتاشية، من جهة، وطقوس الفتيان «الآخية» الذين مررنا بهم من جهة أخرى. واضح أن هذه التجربة استلهمت، بعد قرون، في نظام الفُتُوَّة الذي صدر بقانون رقم (٥٠) لسنة ١٩٣٥ بأمر من الملك غازي، المهووس بالأيديولوجيا القومية المتطرفة، وكان القانون قد صدر استنادًا إلى المادة الثانية من قانون المعارف العامة، باقتراح من وزير المعارف وموافقة مجلس الوزراء، وكان الهدف منه «ترسيخ مبادئ الرجولة والانضباط والتدريب العسكري بين طلبة المدارس العراقية»[٤٤]. وحدد النظام أن الغاية الأساسية منه هي «تربية الفتيان على خشونة العيش وتحمّل المشاق وغرس خصال الرجولة والفروسية والمفاداة، من خلال التمارين العسكرية والرماية والانضباط والطاعة، بما يربط التعليم بالروح الوطنية والعسكرية»[٤٥].

بحسب النظام المذكور، تولت وزارة المعارف

---

(٤١) المصدرُ نَفسُه، ص ١٢.

(٤٢) شقاوات بغداد في العصر الماضي، يونس سعيد السامرائي، منشورات مكتبة النهضة ـ بغداد، الطبعة الأولى ١٩٦٢، ص ٢٠

(٤٣) المصدرُ نَفسُه، ص ٢٠.

(٤٤) نظرات في القومية العربية مدا وجزرا حتى العام ١٩٧٠ ـ أضواء على القضية الآشورية» جرجيس فتح الله ، دار ناراس للطباعة والنشر ـ السلسلة الثقافية الجزء الثاني، ص ٦١٦.

(٤٥) المصدرُ نَفسُه.

إنشـاء مخيم صيفي سنوي في المناطق الجبلية لطلبة الثانويات ودور المعلمين ومـدارس الصنائع ويكون الدّخـول إليهـا اختياريًـا، وتتكفل الوزارة بإعاشـة الفتيان وتجهيـز المخيم ونقل الطلبة من وإلى مواقع التدريب، بالتنسيق مع وزارة الدّفاع التي تتولى تعيين الضباط لتدريبهم وتقديم الأسلحة والعتاد اللازمين.

يكـون نظام المخيم في أوقات التدريب عسـكريًا، وفي بقيـة الأوقات عسـكريًا – تربويًا، خـوّل النظام وزارة المعارف إدخال التمارين العسكرية الأسبوعية ضمـن مناهـج المـدارس المتوسـطة والثانوية ودور المعلمين والصنائع، بالتعـاون مع وزارة الدّفاع التي تقدم المدربين والمعدات. كمـا خصصت الوزارة وقتًا لتعليـم المصطلحـات العسـكرية وتاريـخ الحروب، وتعيين قادة للحظائر والطلائع من الطلبة المتميزين في التدريب والرماية.

قسـم النظام موظفـي وزارة المعـارف إلى ثلاث مراتـب تُعـدّ بمثابة رتـب لضباط الفُتُـوَّة، ومنحهم ألقابًا عسكرية رمزية بحسـب مناصبهم ورواتبهم، تبدأ من الناظـر الأول حتى العاضـد الثاني. واعتُبر وزيـر المعـارف أمـير الفُتُـوَّة، والمدير العـام حامي الفُتُـوَّة، ومدير التربيـة البدنية نائب حامـي الفُتُوَّة. أمـا الطلبة فيعتبرون جميعًـا فتيانًا وتمنح لهم رتب تدريجيـة هـي رئيس الفتيـان، الفتـى الأول، الفتى الثانـي، والفتـى الثالـث، تبعًا لمسـتوى نجاحهم في التدريب[٤٦].

فرض النظام لباس الفُتُـوَّة الموحّد على الموظفين والطلبة، مع تحديد شـكل اللباس والتجهيزات وفق تعليمـات وزاريـة، ولا يُرتـدى هـذا الـزي إلا أثناء التدريـب والمعسـكرات والاسـتعراضات. كمـا حدد النظام نوع الشّـارات التي يحملها الضباط والفتيان على الكتف بحسـب الرتبـة، في تنظيم دقيق يرمز إلى التدرج والانضباط العسكري.

أدخلـت وزارة المعـارف تدريـب الفُتُـوَّة ضمن المناهج الدّراسية الرسمية بالتعاون مع وزارة الدّفاع التي تعـين الضباط وتوفر الأسـلحة والعتاد اللازم. ويُعفـى من التدريب كل من يثبـت طبيًا عدم لياقته البدنية بعد فحص تجريه هيئة طبية مختصة.

وقد ألزم النظام وزارتي المعارف والدفاع بتنفيذه، ونُشر في الوقائع العراقية بالعدد (١٤٦٩) بتاريخ ٧ تشرين الثاني ١٩٣٥، موقّعًا من الملك غازي ورئيس الوزراء ياسين الهاشـمي وعدد من الوزراء البارزين مثل رشـيد عـالي الكيلاني، نـوري السـعيد، جعفر العسكري، وصادق البصّام.

مـا يجب أن يشـار له بهذا الخصـوص أن نظام الفُتُوَّة المسـتلهم من ذاكرة الـتراث العَرَبيّ ومنظومة القيم الاسلامية لم يكن ليسلم من التأثيرات المعاصرة والإيديولوجيـات القوميـة والشـوفينية التي عرفها العالـم في الثلاثينيـات، وأبرزهـا الحركـة النازيّة في ألمانيـا والحركة الفاشـية في إيطاليـا. ويتعدّى الأمر ليصـل إلى الحركـة القوميـة التركيـة الحديثـة. ما جـرى أن القوميـين العراقيين اسـتلهموا تلك الروح الشّوفينية وراحوا يجارونها بتأسيس تشكيل شبابي يتسم بالروح نفسـها، وأبرز من عمل في هذا المنحى الدّكتور سامي شوكت، الذي خلف ساطع الحصري، وأكرم فهمي الذي ترأس وفد الفُتُوَّة المشارك في دورة الألعـاب الأولمبية ببرلـين. كانت الفكرة قـد التمعت في ذهن سـامي شـوكت عندما زار برلـين قبل ذلك، وشـاهد الشّـبيبة الهتلريـة المرعبـة، التنظيـم الذي تأسس لغرض عسكرة التعليم وجعله نازيًا.

وفـق ذلك التنظيـم، كان يؤخذ الطفـل من عمر السادسة حتّى العاشرة، وينتظم في تشكيلات تمهيدية لمـا يسـمى «ألشـبيبة الهتلرية». وحين يبلـغ الطفل العاشرة، بعد مروره باختبـارات في الرياضة وحياة المخيمـات، وبعد أخذه دروسًـا في التاريـخ القومي، يتخرّج بعنوان (فتىjunfolk) ويؤدي يمينًا ينضح بالروح النازيـة: "أمام هذا العلم الدّموي الذي يمثّل زعيمنـا، أقسـم بأني سـأوقف كلّ نشـاطي وقواي

(٤٦) المصدَرُ نَفسُه، ص ٦١٨.

لمنقذ بلادنا أدولف هتلر، وسأكون على استعداد تام ورضى أن أبذل حياتي فداء له دون تردد، فليكن الله في عوني"[٤٧]. وفي عمر الرابعة عشرة، يدخل الفتى في "شبيبة هتلر" ليبقى فيها حتى الثامنة عشرة، وخلالها يحيا حياة المخيمات والمعسكرات المؤسسة وفق النظام العسكري.

في العموم، يمكن اعتبار سامي شوكت المهندس الأول لفكرة بعث الفُتُوَّة في العراق، فهي تتسق تمامًا مع الأفكار الشّوفينية والقومية التي حملها جيل كامل سيطر على التعليم والمؤسسة العسكرية. كانت الدّعوة الأساسية تتجه إلى خلق أنموذج عنيف ومستعد للموت من أجل المبدأ القومي واستعادة أمجاد الأمة العَرَبيّة. نقرأ لسامي شوكت في كراس نشر عام ١٩٣٥ عنوانه "هذه أهدافنا" تنظيرًا مغرقًا في الشّعبوية، يقول في بعض أجزائه:"إن لم يكن لدى مصطفى كمال أربعين ألف جندي مدرب على صناعة الموت، هل كنّا سنرى تركيا تستعيد أمجاد السلطان سليم؟ وفي القرن العشرين، لو لم يكن بهلوي يملك ألف ضابط أتقنوا هذه الصناعة المقدّسة، هل كنا سنرى إعادة أمجاد داريوش؟ ولو لم يكن عند موسوليني عشرة آلاف من ذوي القمصان السوداء الذين تمرسوا في صناعة الموت، لما كان قادرًا على وضع تاج الإمبراطور الروماني على مفرق فكتور عمانوئيل. السبب بسيط جدا، شباب العراق وناشئتهم يجب أن يدرّبوا ليكونوا جنودًا يتقنون صناعة الموت"[٤٨].

(٤٧) المصدَرُ نَفسُه، ص ٥٩٧.

(٤٨) أضواء على القومية العربية، ص ٦٠٧.

المصادر

- تاريخ فتوات مصر ومعاركهم الدّامية، سيد صديق عبد الفتاح، مكتبة مدبولي، القاهرة
- حكايات الشّطار والعيارين في التراث العَرَبيّ، د. مُحَمَّد رجب النجار، سلسلة (عالم المعرفة)، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، سبتمبر (أيلول) ١٩٨١.
- ديوان طرفة بن العبد، شرحه وقدم له: مهدي مُحَمَّد ناصر الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٢.
- شقاوات بغداد في العصر الماضي، يونس سعيد السامرائي، منشورات مكتبة النهضة ـ بغداد، الطبعة الأولى ١٩٦٢
- الصعلكة والفُتُوَّة في الإسلام، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص ٤٠.
- طبقات الصوفية ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، أبو عبد الرحمن مُحَمَّد بن الحسين السلمي، المتوفى ٤١٢ هـ، حققه وعلق عليه: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨.
- الفُتُوَّة في الإسلام، سعيد الدّيوجي، الدّار العَرَبيّة للموسوعات، بيروت الطبعة الأولى ٢٠١٣،
- الفُتُوَّة ..نشأتها وتطورها حتى سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨، الدّكتور أحمد مُحَمَّد الخطيمي، تدقيق مُحَمَّد أحمد الخطيمي، رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية (١٩٣٩ـ ٦ ـ ٢٠٠٨) عمان ـ ٢٠٠٨.
- كتاب الفُتُوَّة، تصنيف الشّيخ أبي عبد الله مُحَمَّد بن أبي المكارم، المعروف بابن المعمار البغدادب الحنبلي، حققه ونشره الدّكتور مصطفى جواد ، الدّكتور مُحَمَّد تقي الدّين الهلالي، الدّكتور عبد الحليم النجار، أحمد ناجي القيسي، قدّم له الدّكتور مصطفى جواد، الناشر مكتبة المثنى بغداد ١٩٥٨.
- لسان العَرَب، ابن منظور، اعتنى بتصحيحها: أمين مُحَمَّد عبد الوهاب ومُحَمَّد الصادق العبيدي، الجزء العاشر، دار إحياء التراث العَرَبيّ، بيروت، الطبعة الثالثة.